إشكاليّة الثّقافة الشّخصيّة والمشتركة عندم لويس دوللو

سعاد بسناسي

*** أستاذة بجامعة وهران السّانية، كليّة الآداب، اللّغات والفنون، قسم اللّغة العربيّة وآدابها**

تصدير:

لقد اخترنا عنوان هذا البحث وإشكاليته انطلاقا من قراءتنا لكتاب تحدّث بتفصيل عن الثّقافة، وتاريخها وتطوّر مفاهيمها، وكذا مجالاتها، وكلّ ما له صلة بالثّقافة، وعنوان هذا الكتاب كالآتي: "الثّقافة الفرديّة وثقافة الجمهور" (Culture Individuelle Et Culture De Masse) يتكوّن من مائة وخمس وثلاثين صفحة، وهو من الحجم الصّغير؛ بيد أنّ مضمونه وعناوينه ثريّة وهامّة وخطيرة، مؤلّفه لويس دوللو (Louis Dollot) وترجمه إلى العربيّة الدّكتور عادل العوّا (Dr. Adel Awa) وهو أحد منشورات عويدات، بيروت- باريس، بموجب اتّفاق مع المطبوعات الجامعيّة في فرنسا، وكان اعتمادنا في هذا البحث على الطّبعة الثّانية لسنة 1982م.

جاء الكتاب مصمّما وفق الخطّة والعناوين الآتي ذكرها: مدخل وثلاثة فصول؛ حيث وَسَمَ الفصل الأوّل منه بإسهام التّاريخ والزّمان الحاضر، وخصّ المؤلّف الفصل الثّاني للحديث عن الثّقافة الشّخصيّة والثّقافة المشتركة، وختمه بالفصل الثّالث الذي تناول فيه إشكاليّة العلوم والتّقنيات والثّقافة الحديثة، ومنه وقع اختيارنا على تحليل إشكاليّات الفصل الثّاني لأهمّيتها من جهة، وخطورة خلفيّاتها من جهة أخرى.

الثّقافة مفهوم ومجالات

لقد احتلّ مصطلح الثّقافة مكانة الصّدارة في حياة الأفراد والمجتمعات، ولعلّ فكرة لم تحظ إلى اليوم بمثل ما تحظى به الثّقافة من ذيوع، ولا سيما منذ أن وجدت فكرة الثّقافة التي ظلّت خلال دهر طويل تعتبر شيئا فرديّ النّزعة وارستقراطيّ، ووجدت نفسها وجها لوجه أمام ظاهرات الجمهور والتّقنيات المسمّاة تقنيّات جماهيريّة؛ لأنّها تحدث في الجماهير تأثيرا جسميّا، ومع ذلك ينبغي التّفريق بين (ثقافة الجماهير وثقافة للجماهير؛ إذ الأولى تعني خصائص الثّقافة عند جمهور معيّن في فترة زمنيّة محدّدة، أمّا الثّانية فهي تعني نوع المنتج الثّقافيّ الذي تبلغه وسائل الاتّصال...وقد تبيّن من الدّراسات التّتبعيّة أنّ الطّبقات الوسطى أكثر انجذابا وتأثّرا بالثّقافات الموجّهة للجمهور، وليس الطّبقات الشّعبيّة كما كان مفترضا من قبل كما أنّ الثّقافة الموجّهة للاستهلاك الجماهيريّ لا يتلقّاها الجمهور بنفس الطّريقة) [1] والسّبب في ذلك يرجع إلى كون الثّقافة هي منتوج تاريخيّ متغيّر ومتطوّر بتطوّر أفراد المجتمعات.

ومن المجالات التي اهتمّت بالثّقافة كما ذكر (لويس دوللو) المجمع الكنائسيّ المسكونيّ حينما طرح (بولس السّادس) في المؤتمر الثّاني الفاتيكاني أوّل مرسوم حول علاقة الكنيسة بالثّقافة الحديثة ساسة، بدءا من رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة؛ فأولوا الاهتمام بالثّقافة، ويضاف إليهم جميع محترفي الثّقافة من (الكتّاب، الشّعراء، الفنّانون، العلماء) أو الذين يتّخذون رسالتهم التّفكير في شؤونها مثل (الأساتذة، علماء الاجتماع، الفلاسفة...) ولكن لم يكونوا مدعوّين رسميّا لإبداء رأيهم في وضع سياسة ثقافيّة موضع التّنفيذ، وقد دعا المجمع الفرنسيّ سنة 1972م في جلسة خاصّة (بالمعجم) إلى إعادة تعريف مفهوم الثّقافة وإضفاء صفة الأهمّية الحاليّة عليه[2]

وتمّ وضع تعاريف جديدة ومتعدّدة لمصطلح الثّقافة، مع تدقيق كبير وحذر في معناها المجازيّ، فأصبحت تطلق بالمعنى المجرّد العامّ مقابل كلمة طبيعة؛ فهي العبقريّة الإنسانيّة مضافة إلى الطّبيعة بغية تحوير عطاءاتها وإغنائها وتنميتها، والثّقافة تدلّ على (انكباب الإنسان بصورة منهجيّة على تنمية ملكاته الفطريّة بدراسة الآداب والعلوم والفنون وكذلك بالملاحظة والتّفكير. ومن الممكن النّظر إلى المجال الذي تمارس فيه هذه الفاعليّة وتمييز ثقافة الذّكاء وثقافة الحكم وثقافة الحساسيّة... وعندما تضاف كلمة الثّقافة فإنّها تدلّ على معلومات خاصّة ببحث معيّن: ثقافة فلسفيّة، أدبيّة، فنّية، علميّة... ومن الجائز تتبّع شروط التّحصيل أو شكل المعرفة ...ويقال بوجه الإطلاق: ثقافة واسعة، ثقافة متينة. أمّا الثّقافة العامّة فإنّها تدلّ على المعلومات الأساسيّة التي تسبق وتواكب، بصورة نافعة كلّ اختصاص مهنيّ) [3] فالثّقافة بهذا المفهوم، تشمل المقوّمات الإنسانيّة المعنويّة المتمثّلة في التّفكير، ومختلف الوجوه الفكريّة والذّهنيّة والمبادئ الأخلاقيّة، كما تشمل المقوّمات الماديّة المساعدة على تطوّر الحياة بمختلف مجالاتها؛ لأنّ الثّقافة موجودة في كلّ مكان وزمان.

ازدهار مفهوم الثّقافة.

لقد احتلّ موضوع الثّقافة مكانة هامّة قديما وحديثا؛ فهي مركز اصطدام الأفكار وفي الوقت ذاته اصطدام المستقبل، مثلما كانت في تعاقب الأزمان حال (أهداف المعرفة) و(رسالة الفكر) وليس بمستغرب أن نجد الثّقافة تفسح المجال، تبعا لما أمكن مقارنته بها في الماضي، بحسب البلدان والأفراد، تفسح المجال أمام أكثر التّأويلات اختلافا وتباينا، ودور التّفاعل الملاحظ بصددها بين الجهد الفرديّ وضغط الجماهير. وتوقّف الشّاعر الإنجليزيّ والمؤلّف الدراميّ (ت.س.إليوت/T.S.ELIOT) طويلا أمام مشكلة تعريف مصطلح الثّقافة؛ حيث قال في ذلك: (إنّ حاجة الكلمة للتّعريف تزداد بعد استعمالها السّيئ مثلما يحتاج مذهب بعد ظهور بدعة فيه)[4] وذلك باعتبار مشكل الثّقافة، يطرح في كلّ عصر وفي كلّ مجتمع بطريقة مستمرّة ومتواصلة، وسواء استعمل اللّفظ بصيغة المنكّر أم المعرّف، أم بصيغة المفرد أم الجمع، وإن استخدم للدّلالة على شخص أو جماعة أو على المجتمع بأسره، أو عني به الفرد أو رسالة أو دولة، أو قصد الباحث منه الدّلالة على سبل التّحصيل والاكتساب أو على النّتيجة المحقّقة؛ فإنّ المعنى يتغيّر في كلّ حال، ويقابل لفظ الثّقافة جملة من الألفاظ منها: اللاّثقافة (Inculture) والثّقافة المضادّة (Contre-Culture)[5] والثّقافة الطّباق (Anti-Culture)[6]

وكثيرا ما يتمّ ربط كلمة "الثّقافة" بكلمات أخرى؛ فتبدو تتمّة لها أو طباقا نحو: المسرح والثّقافة، العمل والثّقافة، العلم والثّقافة؛ بينما تبدو عبارة (ثقافة فرديّة) تركيبا فيه حشو، وعبارة (ثقافة الجمهور) عند البعض فيها تناقض داخليّ. وتداخلت الكثير من المصطلحات التي أنجبتها الثّقافة معها[7] مثل: (التّفاعل الثّقافيّ/ Acculturation) ويعني التقاء أو اصطدام ثقافتين مختلفتين ومتفاوتتين، إضافة إلى مصطلح (المذهبيّة الثّقافيّة /Culturalismes) وهي كلمة من أصل إنجليزيّ تدلّ على تأثير الوسط الاجتماعيّ المعارض للوسط العقائديّ، بل ومثل (التّكلّف الثّقافيّ/Culturisme) فالملاحظ أنّ مصطلح الثّقافة يزدهر وينمو ويتطوّر في كلّ لحظة، كما نجده يحمل دلالة فرديّة حينا، ودلالة جماعيّة أحيانا.

الثّقافة والثّقافات

لقد تبيّن من خلال كلّ ما سبق ذكره، أنّه من العسير تقديم مفهوم واحد للثّقافة وذلك لتباين الخلفيّات والذّهنيّات بين الأفراد والمجتمعات، ونجد الكثير من المصطلحات التي تزاحمها كمصطلح الثّقافات بصيغة الجمع التي هي (طرز حياة جماعيّة نوعيّة، وهي تؤلّف ما يسمّى الثّقافة من الدّرجة الأولى؛ أمّا الثّقافة الشّخصيّة فهي تحتلّ الدّرجة الثّانية، وقوامها وعي قيمة الثّقافات، وغنى الفكر الذي قد ينتج عنه...وعلى الصّعيد الجغرافيّ نجد الثّقافات تتوزّع أيضا على سلم كبير سواء أكانت في إطار الأمّة أم المنطقة أم الجماعة)[8] وذلك ما يلاحظ حينما تنسب الثّقافة إلى مجتمع معيّن، نحو الثّقافة الفرنسيّة، والثّقافة الأمريكيّة، وغيرها.

وينبغي معرفة الشّروط والأسس التي ينبغي أن تراعى في الفرد والمجتمع حتّى يستحقّ اسم ثقافة أو ثقافات؛ إذ يرى (إليوت) أنّه من العسير إطلاق اسم الثّقافات على "ثقافات" إيكوسيا وغالوا وإيرلندا مادامت تتبع الثّقافة الإنجليزيّة في اتّصالها بالعالم الخارجيّ، فيعتبرها ثقافات فرعيّة، أو ثقافات تابعة[9] ويفهم من هذا، أنّه بالإمكان أن تلتقي ثقافة مجتمع بآخر أو تتشابهان؛ إذ نجد الكثير من نقاط التّلاقي مثلا بين بلدان الغرب نفسها أو بلدان العرب فيما بينها؛ لكن لا تتماثل ولا تتوحّد في كلّ الخلفيّات والمعطيات، ومع ذلك فهذه التّقاربات قد تمكّنهم من السّعي إلى معالجة مشتركة لفكرة الثّقافة الشّخصيّة.

مقدّمات الثّقافة

إنّ الحديث عن الثّقافة واسع متشعّب المفاهيم والدّلالات، بسبب المفاهيم المتقاربة بينها وبين مصطلحات أخرى، وهي في حقيقة الأمر تمثّل جانبا من جوانب الثّقافة، وهناك من يسمّيهم "بالأصدقاء الزّائفين[10] وعددهم ستّة: المعرفة والمعلومات، وسعة الاطّلاع، والتّعليم، والتّربية، والتّكوين، يعرّف بعضها ببعض غالبا؛ فالمعرفة (Savoir) [11] تدلّ على المعلومات النّاجزة، وتدلّ على التّجربة، وعلى قيمة كميّة لا كيفيّة، وتدلّ على خزن الفكر والوقائع والأفكار بالمعنى الذي استعمله (موليير/Moliere) في كلامه عن "النّساء العالمات"، والثّقافة هي صياغة عالمة للفكرة المشهورة التي نسبت إلى (إدوار هريو/E.Herriot) (الثّقافة هي ما يبقى بعد نسيان كلّ شيئ) فبعض المعرفة ينبغي أن يستمرّ، ولا وجود للثّقافة إذا لم يسبقها تفكير يرمي إلى استخلاص روحها ومعناها.

كما يقترب مصطلح المعلومات (Connaissances) من مفهوم المعرفة، وهي تجعل المفهوم أكثر تجريدا. وسعة الاطّلاع (Erudition) تدلّ على اختصاص المعرفة أو المعلومات في فرع معيّن، وبوجه عامّ فرع أدبيّ أو ما ينتمي إلى العلوم الإنسانيّة، وكلّ إنسان مثقّف لا يستغني عن المعلومات؛ ولكن لا يفرض عليه أن يكون واسع الاطّلاع، كون ذلك يبقى أمرا اختياريّا؛ أمّا التّعليم (Instruction) فهو مقدّمة حقيقيّة للثّقافة، وسمة إلزاميّة، فهو سبيل من سبل التّحصيل ورصيد المعلومات، ووسيلة نقل؛ ولكنّه معطى أوّلي وضروريّ للثّقافة.

ويتمّ التّعليم عن طريق معلّمين، وأدوات ووسائل تساعدهم على ذلك، إضافة إلى إسهام الطّريقة السّمعيّة البصريّة. وتعتبر التّربيّة العمليّة وسيلة للتّعليم، والثّقافة هي غير التّعليم وغير التّربية، مع أنّ التّربية هي أحد أهمّ طموحات الدّول، وهي تستهدف تقديم المعلومات، كما تمنح الفرد تكوينا أتمّ، كالتّربية البدنيّة، والتّربية الأخلاقيّة، والاجتماعيّة، والمدنيّة، وغيرها، وكلّها وسائل أساسيّة لنقل الثّقافة.

فالتّربية تمثّل صعيدا متوسّطا بين التّعلّم والثّقافة؛ لأنّ الفرد المتعلّم والفرد المثقّف قد يكونان شخصين مختلفين، والثّقافة تمضي إلى أبعد من ذلك، وتنطوي على علاقة توازن يقيمها المرء بينه وبين أقرانه، وبينه وبين مواضيع الثّقافة، ويساعد على كلّ هذا التّكوين (Formation) وهو ذو أهمّية، لأنّه يساعد على ما يعوز المرء وينقصه، كجمع معلوماته وتنظيمها تنظيما موائما وتأمّليّا؛ بغية أن يستخلص بالتّكرار أفضل ما تنطوي عليه[12] ومع ذلك ينبغي أن تقوم عمليّة التّكوين من أجل هدف معيّن، وترتبط بغايات محدّدة. ونستخلص ممّا سبق، أنّ المعرفة، والمعلومات، والتّعليم، والتّربية، والتّكوين، وسعة الاطّلاع تعتبر مقدّمات الثّقافة. وللثّقافة مناخ ينطوي على ثلاثة معطيات أساسيّة هي: الحريّة، والتّهيّؤ، ثمّ الوراثة الاجتماعيّة فالبيئة[13] كما يحتاج الإنسان إلى عناصر حيّة لنموّه الثّقافيّ، وهما عنصران يتداخلان في تقدير المعطى والمكتسب، مفهوم "كمّي" أو موضوعيّ، ومفهوم "ذاتيّ" يحدّد هويّة الإنسان المثقّف بالنّسبة لأقرانه، وينجز منح فرديته ميزاتها الخاصّة.

إنّه ورغم تعدّد روافد الثّقافة عند الأفراد، فإنّ إحداها حتما تكون سائدة بوجه عامّ؛ فكيف بإمكانه استخدام الملكات التي يتصرّف بها، وما الإمكانات المتاحة له لبلوغ ثقافة جديرة بهذا الاسم؟ إنّ المفهوم الكمّي أو الموضوعيّ له دوره في تحديد الهويّة الفرديّة؛ فالثّقافة الفرديّة كانت تسرف في التّغاضي عن سعة الرّفد الاجتماعيّ، وكان الاهتمام كثيرا بالتّربية البدنيّة التي تولي الاهتمام بالجسم، لكي يكون الفرد مثقّفا. فتأليف ما يسمّى بنواة الثّقافة الشّخصيّة، هو نسيج ثقافيّ، يشتمل على متحوّلات إلى جانب اشتماله على عناصر ثابتة، وهذا ما يدفعنا إلى ممارسة نوع من التّحليل ثلاثيّ الأبعاد، وبالترّتيب، مضمون الثّقافة الحديثة، ودرجتها، وسعتها.

وخلاصة ما سبق، أنّ الثّقافة بجوهرها تجرّد ومشاركة، وينبغي أن تبلغ مستوى معيّن من المعلومات حتى تستحقّ اسم الثّقافة. وهي مستويات بحسب سمات ومستويات أفرادها؛ فهناك الثّقافة الرّفيعة لكبار المفكّرين الذين لا يتّسمون بسمة اختصاص معيّن، وفي طرفها المقابل توجد الثّقافة الأساسيّة أو الأوليّة التي تمثّل الحدّ الأدنى من المعلومات التي لا ترفد صاحبها بما يفتّح كيانه بصورة تامّة، وقد يرفض البعض تسميتها ثقافة؛ بل لا تزيد عن كونها تعليما أو تربية، وبين هذين الحدّين توجد الثّقافة المتوسّطة وهي الأكثر شيوعا؛ إذ تتيح للفرد أن يحيا حياة لائقة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الإنسان المثقّف لا يتألّق على نحو واحد في جميع مجالات الفكر، والثّقافة ينبغي أن تتجدّد وتتطوّر بتجدّد العلوم والمجتمعات؛ فلا ثقافة بلا جهد، لأنّ كلّ ثقافة بجوهرها لا ترتوي، والثّقافة هي كلّ ما يرقى بالحياة، ولذا يجب تغيير الحياة وتجديدها ومسايرة ذلك، كما لا ننسى دائما أنّ الثّقافة بدون الآخرين من المستحيلات، وهي فضلا عن ذلك عطاء من الذّات، ومشاركة في ترصّد الإنسان، ومساهمة في المواهب والمعلومات، وهي ليست ترفا ولا امتيازا، ولا تكوينا إضافيّا يلي التّعليم والتّربية؛ بل الثّقافة هي شكل حياة أسمى كما جاء كلّ ذلك في مفهوم (لويس دوللو) للثّقافة الفرديّة وثقافة الجمهور.

الهوامش:

1. ينظر، محمّد العربي ولد خليفة، المسألة الثّقافيّة وقضايا اللّسان والهويّة، ديوان المطبوعات الجزائريّة، الجزائر، 2003م، ص74/37، باختصار. وينظر، خريستو نجم، الثّقافة بين العالميّة والمحليّة في النّقد الأدبيّ والتّحليل النّفسيّ، دار الجيل، بيروت، مكتبة السّائح، طرابلس، ط1، 1991م، ص280.
2. ينظر، لويس دوللو، تر، عادل العوّا، الثّقافة الفرديّة وثقافة الجمهور، منشورات عويدات، بيروت لبنان، ط1982م، ص06، وما بعدها.
3. نفسه، ص08 باختصار.
4. نفسه، ص10.
5. نفسه، ص11. هذا المعنى استخدمه (هربرت ماركيوز/H.MARCUSE) في مؤلّفه الثّقافة والمجتمع 1965م.

6. نفسه، ص11. ويقابل هذا الثّقافة المتوحّشة.
7. نفسه، ص12.
8. نقسه، ص56، وما بعدها، باختصار.
9. نفسه، ص57.
10. نفسه، ص58.
11. وإشكاليّة المعرفة سؤال مركزيّ في العلم المعرفيّ، طرحه بشكل دقيق العالم اللّسانيّ النّحويّ تشومسكي سنة 1975م؛ حيث قال: (كيف يحدث أنّ الكائنات البشريّة في ارتباطها المحدود والشّخصيّ بالعالم تكون رغم ذلك قادرة على معرفة ما تعرفه، فالإنسان يمتلك معرفة ما عن حقائق موجودة فعلا، وعن بعد "distal" سواء كانت طبيعيّة أو اجتماعيّة أو رياضيّة أو لسانيّة، ويدخل معها في تفاعل، عن طريق الحواس ثمّ بواسطة الحدس، وأخيرا عن طريق التّفكير المعقلن) ينظر، عبد السّلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، مقاربة تداوليّة معرفيّة لآليات التّواصل والحجاج، إفريقيا الشّرق، المغرب، 2012م، ص26.
12. لويس دوللو، الثّقافة الفرديّة وثقافة الجمهور، ص61، بتصرّف واختصار.
13. نفسه، ص63 وما بعدها بتصرّف.